معركة سوق أهراس الكبرى قيادة الثورة بين مشاكل التسليح ومخاطر العبور
(26 أفريل – 03 ماي 1958)

أ. جبلي الطّاهر
قسم التاريخ جامعة بوبكر بلقايد
-تلمسان-

" الموت برصاصة في الصدر، يطلقها عدو تكون معه وجها لوجه أو بضربة خنجر في الصدر، هي ميتة لبطل يظل الشعب يتذكره دائما وإلى الأبد، لكن ليس الأمر كذلك للذي يوّلي دبره للعدو"، ذلك هو شعار الحرب عند الكثير من الجزائريين طيلة سنوات المواجهة، أثناء الحرب التحريرية (1954 - 1962)، من خلال أبرز، وأهم المعارك المصيرية الحاسمة التي خاضها جنود جيش التحرير الوطني ضد أعتى قوة عسكرية عدة وعتادا، فضلا عن تجاربها العسكرية السابقة في إفريقيا وآسيا.

ارتبطت حركية كتائب جيش التحرير الوطني بالمستجدات الجديدة التي أفرزتها السياسة الفرنسية خصوصا مع خريف سنة 1957، عندما لجأت الإدارة الفرنسية إلى ضرب حصار خانق على طول الحدود الشرقية والغربية بإنشائها لخطي موريس ثم شال فيما بعد، وتعزيز قواتها العسكرية التي بلغت في مجموعها أكثر من 50 ألف جندي وسبعة أفواج مدفعية وأربعة فيالق دبابات في الجبهة الشرقية وحدها الأمر الذي دفع بقيادة جيش التحرير الوطني إلى تغيير أسلوب العمل العسكري لتمكين تدفق السلاح نحو الداخل، وهي المشكلة التي طالما عانت منها الولايات الداخلية خصوصا بعدما اتسعت رقعة العمل العسكري عبر كامل التراب الوطني تقريبا. وبذلك بدأت حلقة جديدة من مسلسل معارك

الحدود على طول خطي النار (موريس وشال) التي هي نفسها معارك العبور بالسلاح نحو الولايات الداخلية، وستصبح فيما بعد من أعنف المعارك وأكثرها شراسة.

وإذا كانت معركة الجرف الشهيرة في أكتوبر 1955، من أبرز معارك ثورة التحرير الوطني في الولاية الأولى (أوراس النمامشة) التي شبهها الكثيرون ممن عاصروها بمعركة بدر، وما سبقها من معارك طاحنة في الزرقة، وأم الكماكم وهود شبكة بصحراء وادي سوف، وكاف بوغزالة، فإن معركة سوق أهراس الكبرى في القاعدة الشرقية، تعدّ من أكبر المعارك على مستوى التراب الوطني، بل هناك من اعتبرها أم المعارك، نظرا لعدد العناصر المشاركة فيها من المجاهدين، وحجم القوات التي سخّرها العدو، لذلك وكذا من حيث نتائجها، وفي هذا السياق يذكر الصحفي اليوغسلافي زدرافكو بيكار "Zdravko Pecar"، أحد متتبعي يوميات جيش التحرير الوطني بالقاعدة الشرقية، قائلا "بأن معركة سوق أهراس من أكبر معارك العبور التي خاضها جيش التحرير بالقاعدة الشرقية على خط النار (خط موريس) في ربيع 1958"(1).

ربما ليكتشف بعدها الجزائريون وللمرة الأولى منذ الانطلاقة، محدودية الخيار العسكري الذي يملكونه، الأمر الذي دفع بالبعض منهم مضطرا إلى انتهاج حلولا وبدائل سياسية

جديدة والتحلي بمرونة أكثر مع العدو، وربما يكون ذلك أيضا من أهم الأسباب التي عمقت في تلك الصراعات والنزاعات التي دبت بين النخب السياسية والعسكرية للثورة الجزائرية .

1) خلفيات وأسباب معركة سوق أهراس الكبرى:

إن إستراتيجية قيادة جيش التحرير الوطني بالقاعدة الشرقية في تعاملها مع القوات العسكرية الفرنسية المكلفة بمراقبة وحراسة الخطوط المكهربة، كانت ترتكز في حقيقة الأمر على القيام بعمليتين أساسيتين هما :

أ) - مهاجمة الخطوط بهدف إحداث ثغرات تسمح باختراق وعبور الأسلاك الشائكة وحقول الألغام.

ب) - إحداث فيالق جديدة ابتداء من سنة 1958، أوكلت إليها مهمة قوات الإسناد، والمتمثلة في حماية قوافل التسليح عبر نطاق القاعدة والولايتين الأولى والثانية، الأمر الذي كان ينتهي في أغلب الأحيان باصطدام حامي الوطيس مع الفرق التابعة للجيش الفرنسي الرابضة بمحاذاة الخطوط المكهربة.

ولم تكن عمليات العبور بالسلاح نحو الولايات الداخلية بالأمر الهيّن بالنسبة لقيادة الثورة في القاعدة خصوصا عندما يتعلق الأمر بفكرة المزاوجة بين مهمتي الدعم اللوجيستيكي والنشاط العسكري في ظروف تتخللها الكثير من الصعوبات والمخاطر،

بسبب عمليات المراقبة المستمرة، من طرف قوات العدو، إضافة إلى مراكزه العسكرية المتقدمة عبر التراب الحدود الشرقية، الأمر الذي فرض على قيادة جيش التحرير الوطني تغيير أسلوب المواجهة العسكرية باستخدام فيالق إسنادا لقوافل العبور بالسلاح نحو الداخل.

لذلك قامت القيادة العسكرية في القاعدة بتشكيل فيلق رابع زيادة على الفيالق الثلاثة المتمركزة عبر المناطق الثلاث المشكلة للهيكل التنظيمي السياسي والإداري للقاعدة، وتجدر الإشارة إلى أن الفيلق الجديد، قد تم تكوينه بالقواعد الخلفية في التراب التونسي مع مطلع سنة 1958، وجمعت عناصره من الفيالق الثلاثة الأخرى، بسبب تزايد عدد المتطوعين الشباب من أبناء اللاجئين على الخصوص في صفوف جيش التحرير الوطني[2].

ونظرا للوضع المتردّي الذي انعكس بصورة مباشرة على أداء القاعدة، عندما لجأت السلطات الاستعمارية في محاولة لا إنسانية إلى عملية ترحيل وإخلاء سكان المناطق الواقعة بين خط موريس والحدود التونسية شرقا ومن البحر إلى مشارف الصحراء جنوبا تمهيدا لجعلها منطقة محرمة، بناءا على اقتراح من طرف وزير الدفاع الفرنسي، شابان دالماس "CHABAN DALMAS" في شهر جانفي سنة 1958، وموافقة المجلس الوزاري الفرنسي يوم 19 فيفري من السنة نفسها، أصبحت المنطقة التي استحدثت خصيصا

لتمركز الفيلق الجديد (الرابع)، معزولة تماما عن الثورة بعد معركة كاف العكس التي وقعت في الأسبوع الأول من شهر فيفري 1958، ولذلك ظهرت الحاجة إلى الانتشار بها لتكون همزة وصل بين الداخل والحدود التونسية.

ومن جهة أخرى فإن متطلبات العمل الثوري فرضت على عناصر جيش التحرير الوطني ربط الاتصالات بين ولايات الداخل بالمناطق الحدودية على أساس أن هذه المنطقة (منطقة تمركز الفيلق الرابع) تتصل بالولاية الثانية عن طريق الناظور، وحمام النبايل، وبالولاية الأولى عن طريق سدراتة(3).

إضافة إلى هذه الأسباب التي سبق ذكرها هناك سبب رئيسي يعود إلى عملية حماية وإسناد القافلة نقل السلاح كانت متوجهة إلى الولاية الثانية(4)، وهي العملية التي تمت في ظروف عصيبة جدا نتيجة الحاجة الملحة للسلاح من طرف الداخل، ولذلك جهزت القيادة العامة للقاعدة الشرقية فيلقا (الفيلق الرابع) أسندت قيادته إلى المجاهد محمد الأخضر سرين، بمساعدة يوسف الأطرش وعلي باباي (عبود) وأحمد دراية(5).

2) التحضيرات الميدانية لعملية العبور:

في شهر فيفري 1958، انطلقت العمليات التدريبية الأولى قرب ساقية سيدي يوسف، وبالضبط في ناحية عين مازر، ونشير

إلى أن التحضير لعملية العبور، شمل الفيلق الرابع، إلى جانب تدريب جنود كتائب التسليح المتوجهة نحو الولاية الثانية، حسب متطلبات المهمة المسندة إليه، والمتمثلة في مواجهة قوات العدو وتخريب منشآته، وإزالة الأسلاك، وتأمين ومرافقة قوافل السلاح القادمة من وإلى الولايات الداخلية، خصوصا عندما يتعلق الأمر بعمليات العبور عبر الخطوط المكهربة وحقول الألغام في هذه الناحية عند توازي الخطين المكهربين على محوري طريق السكة الحديدية، ومحور الطريق الوطني تبسة، سوق أهراس[6].

3) الإمكانيات المادية والطبيعية (الوحدات المشاركة):

تشكلت الوحدات التي شاركت في هذه المعركة من الفيلق الرابع التابع للقاعدة الشرقية، الذي ضم ثلاث كتائب كان على رأس قيادتها كل من عثمان معنصر[7]، وعيسى فيو[8]، وسالم جليانو[9]، إضافة إلى كتيبة رابعة لدعم الفيلق لوجيستيكيا.

أما بالنسبة لقافلة التسليح المتوجهة إلى الولاية الثانية تتكون هي الأخرى من ثلاث كتائب هي :

- كتيبة تابعة لناحية الطاهير على رأسها يوسف بوعجيمي (البونيط) تضم 135 مجاهدا.
- كتيبة تابعة لناحية ميلة على رأسها عبد الله باشا، تضم 135 مجاهدا.

- كتيبة تابعة لناحية سكيكدة يقودها محمد يسعد وتضم 125 مجاهدا[10].

وحول إمكانيات الكتائب من حيث العدة والعتاد فإنها كانت مزودة بأسلحة مختلفة (رشاشات - بنادق - ومدافع هاون عيار 45 مم، وقنابل يدوية) [11]، ومن الناحية التضاريسية فإن طبيعة المنطقة المتميزة بالتلال الغابية الكثيفة لأشجار الفلين، كانت تسمح بتغطية جيدة لكتائب جيش التحرير الوطني، الأمر الذي كان يدفع دائما إلى التفرق بعد اختراق الخطوط في الكثير من العمليات السابقة، لذلك فإن قوات العدو أولتها أهمية خاصة بحيث يذكر العقيد الفرنسي بيشو (*J.*Buchoud) أنه خلال ثلاثة أشهر من جانفي إلى نهاية أفريل 1958، قامت الفرقة التاسعة للقناصة المظليين (9éme RCP) بقضاء ستين يوما في عمليات مراقبة، ضواحي سوق أهراس استعدادا للتدخل، وقطع الطريق أمام حركة الثوار، أين كانت قيادة الثورة في القاعدة الشرقية تحاول اختراق خط موريس، وقد تمت هذه العمليات -المراقبة - أحيانا بدعم الوحدات العسكرية في المنطقة مثل الفرقة 26 والفرقة 152 للمشاة المغاربة والفرقة 60 للمشاة[9]، الأمر الذي أثّر على حركة كتائب جيش التحرير بسبب المراقبة المستمرة على طول خط موريس، حيث يذكر قائد الكتيبة الثالثة، سالم جليانو بأن حظ الفيلق

الرابع كان سيئا منذ نشأته بسبب رصد تحركاته من طرف العدو، خصوصا أثناء العمليات التدريبية، بالقرب من قرية سيدي يوسف التونسية.

4). مرحلة الاختراق والعبور:

بدأ التخطيط لعمليتي الاختراق والعبور بدراسة الوضع العام ميدانيا، من طرف قائد الفيلق المجاهد الأخضر سرين ومساعديْه، وبناء على معلومات تم الحصول عليها من طرف دوريات الرصد ومراقبة تحركات فرق الجيش الفرنسي، حددت أماكن العبور لاعتبارات تكتيكية أكثر منها استراتيجية؛ لأن العدو يعرف جيدا طرق وممرات عبور قوافل السلاح إلى المقاتلين الثوار في الولايات الداخلية[13].

وفي ليلة 25 أفريل، شرعت قيادة الفيلق في مباشرة مهمتها الصعبة والشاقة، خصوصا وأن عملية اجتياز خط موريس ليس بالأمر السهل، نتيجة الحصانة العسكرية من طرف فرق الجيش الفرنسي عبر الخطوط، بحيث وقع الاختيار لانطلاق عملية العبور ضواحي مدينة سوق أهراس وبالضبط في جبل موجن[14]، وبذلك قامت عناصر من كتائب فيلق الإسناد، بتهيئة ممرات وثغرات في الخطوط عن طريق الحفر تحت الأسلاك الشائكة المكهربة بعد التأكد من خلوّها من الألغام، وقبل طلوع فجر يوم 26 أفريل، عبرت كتائب التسليح المتوجهة إلى الولاية الثانية، ثم عبرت وراءها

كتائب الفيلق الرابع، وتمركزت بشكل متفرق ضواحي مدينة سوق أهراس في كل من بوصالح والزعرورية، والحمري، ووادي الشوك[15].

إلا أن قوات العدو تمكنت بعد ذلك من اكتشاف عبورهم ولم تستطع تحديد عددهم وعدتهم، وفي هذا السياق يذكر العقيد الفرنسي بيشو (J. Buchoud) بأن معظم هذه العمليات، تم تحقيقها بواسطة حفر خنادق تحت الخط المكهرب، دون أن تنطلق صفارات الإنذار، ويمكن القول أن مهمة أجهزة الإنذار في الخط كانت فاشلة من الناحية التقنية، لكن حوالي 30 % من الذين عبروا الخط نحو الداخل تّم اكتشافهم[16]، الأمر الذي دفع بالنائب العسكري للفيلق، المجاهد يوسف الأطرش، ومساعدية من قادة الكتائب لدراسة الظروف والمستجدات الجديدة التي لم تكن سوى إرهاصات لمعركة مفروضة، بعد أن وقعت الوحدات المشاركة أثناء عملية العبور في طوق قوات العدو، وهي تعتقد بأنها قد عبرت الخطوط بسلام.

5). في قلب المعركة:

إن تلك المواجهة التي دامت أسبوعا كاملا، هي إحدى أطول المواجهات في الجبهة الشرقية، وفي الجزائر كلها، على حد تعبير الصحفي اليوغسلافي زدرافكو بيكار "Zdravko Pecar"[17]

الذي تابع مجريات أحداثها كمراسل لإحدى الصحف اليوغسلافية في تلك الفترة، وتجمع أغلب الشهادات الحية الشفوية منها والمكتوبة أن مجريات المعركة وتطور مراحلها كانت بداية من يوم 26 أفريل 1958 على الساعة التاسعة صباحا ، عندما طوّقت قوات العدو كل الطرق المؤدية إلى ميدان المعركة[18]، ثم شرعت في تزحف نحو مواقع وحدات جيش التحرير المتركزة في إطار جغرافي شمل جبل بوصالح، وجبل الحمري، ووادي الشوك، وعندما وصلت خطوط التماس، بدأ القتال مع الوحدات الأولى في المواقع التي تمركزت فيها كتائب الولاية الثانية.

ونظرا للحصانة الطبيعية لميدان المعركة التي حُظيت بها كتائب جيش التحرير، خصوصا بعد أن أخذت مواقعها، بدأت فجأة عمليات مكثفة للإنزال الجوي للمظليين عن طريق طائرات عمودية على الجبال المحيطة بأماكن تواجد كتائب جيش التحرير[19]، تلاها قصف مدفعي مكثف لمختلف المواقع من طرف قوات الإنزال الجوي الأولى التي أخذت هي الأخرى في تزحف لاحتلال المواقع الاستراتيجية لميدان المعركة.

تطور الوضع العسكري باستعمال العدو للسلاح الجوي المكثف بطائرات حربية مختلفة مثل: (T6، و B26، و B29، وموران، وبروسار، وطائرات أخرى للاستكشاف من نوع بيبر)، وفي الوقت نفسه شرعت القوات البرية، وكتائب الدبابات المصفحة

تزحف من مختلف الجهات في حركة التفاف حول كتائب الفيلق، وقافلة السلاح المتجهة نحو الولاية الثانية، مما أدى إلى اتساع رقعة المعركة لتشمل ناحية النبايل، والمايدة بين سدراته، وقونو، وهو ما دفع بعناصر جيش التحرير من الفيلق الرابع إلى الضغط على العدو والالتحام به في ميدان المعركة، قصد اتقاء القصف الجوي والبري المكثف[20].

ولفك الحصار المضروب من طرف قوات الجيش الفرنسي (البرية والجوية) أعطيت أوامر لبعض قادة الفصائل باستعمال صواريخ (الإنركا)، والرشاشات بهدف إحداث ثغرات للخروج من دائرة المعركة (الجهة الغربية من منطقة العمليات)، في حين بقيت القوات الرئيسية للفيلق الرابع داخل الحصار[21].

وفي اليوم الثاني تواصلت المعركة على أشدها، ونظرا للتفوق العددي للفرق الفرنسية المحمولة جوا[22]، الأمر الذي أصبح يفرض نفسه دائما، في هذا النوع من المعارك نتيجة تصاعد العمليات العسكرية في إطار جغرافي لعبت فيه العوامل التضاريسية دورا كبيرا في تغطية كتائب المجاهدين خلال حركتها المستمرة عبر الخطوط، ونتيجة لهذا الأسلوب في العمل العسكري، تم الانسحاب، وتفرق مجاهدو كتائب الفيلق، واندفع بعضهم نحو الخط المكهرب، بحيث استشهد عدد كبير منهم بسبب حقول

الألغام، ووجد بعضهم ملتصقا بالأسلاك المكهربة بينما وقع البعض الآخر في شراك قوات العدو[23].

بلغت المعركة أشدها، خصوصا على الخطوط المكهربة إلى درجة المواجهة بالسلاح الأبيض، واستمر الوضع على هذا الحال ما يقارب الأسبوع، تمكنت خلاله بعض الأفواج من الفيلق الرابع من الانسحاب خارج ميدان المعركة، واتجهت نحو الدهاورة[24]، عندما تمت ملاحقتهم من طرف العدو، ووقع الاشتباك في نفس المكان، أين استشهد نائب قائد الفيلق يوسف الأطرش وقائد الكتيبة الأولى عثمان معنصر، وأسر قائد الكتيبة الثانية عيسى (فيو).

ولتخفيف الحصار المضروب لجأت الوحدات الأخرى لجيش التحرير الوطني في الشمال والغرب للخط المكهرب إلى الهجوم على المراكز العسكرية لجيش العدو، حيث قام قائد الكتيبة التابعة للفيلق الثاني محمد الطاهر دوايسية بهجوم على عين سيمور، استشهد خلاله، كما قام الفيلق الثالث بهجوم آخر على مراكز العدو المنتشرة على تراب المنطقة الثالثة من القاعدة الشرقية[25].

6). نتائج وآثار معركة سوق أهراس على النّشاط الثّوري في الحدود الشّرقية :

إن أكثر المعارك شراسة هي معارك العبور، ورغم صحة هذا الطرح فإننا لا نستطيع الوقوف على أرقام مضبوطة لخسائر

جيش التحرير أو خسائر العدو، نظرا لقلة المصادر وصعوبة الحصول على التقارير والبلاغات العسكرية الرسمية التي كانت تصرح بصفة تقريبية عن إحصائيات الخسائر التي لحقت بكل طرف في ميدان المعركة.

انتهت معركة سوق أهراس الكبرى يوم 4 ماي 1958، مخلفة وراءها خسائر معتبرة في كلا الجانبين، إذ تشير المصادر التاريخية المتوفرة من شهادات حية، ووثائق إلى نتائج المعركة، رغم اختلافها في ضبط إحصائيات عدد القتلى في كل طرف عند نهاية المعركة.

وحول هذا الموضوع يشير التقرير الولائي لتاريخ الثورة بولاية سوق أهراس إلى أن عدد الذين استشهدوا في هذه المعركة ما يقرب سبع مائة (700 شهيد) [26]، في حين يذهب المرحوم المجاهد نوبلي الزين في شهادة له أثناء برنامج تلفزيوني حول القاعدة الشرقية، إلى أن معركة سوق أهراس هي العملية التي تضرر منها الفيلق الرابع بسبب تطويقه من كل الجهات، مما أدى إلى نهاية مأساوية، باستشهاد ما يقرب من خمس مائة (500 شهيد)، وهي الحصيلة التي أحدثت أضرارا بليغة في جيش التحرير الوطني بالقاعدة الشرقية[27].

ويذهب المراسل الصحفي اليوغسلافي زدرافكو بيكار " Zdravko Pecar" ، إلى أن هذه المواجهة خلفت خسائر معتبرة في كلا الطرفين، فالعدو من خلال المناشير التي كانت ترمى من الطائرات حول المناطق المحيطة بخط موريس أكدوا فيها أنهم استطاعوا قتل 534 جندي من جيش التحرير الوطني، غير أنهم لم يقدموا في تصريحاتهم الرسمية أية إشارة حول عدد خسائرهم[28].

وبالرغم من ذلك فإن الفرنسيين دفعوا أيضا ثمنا باهظا لانتصارهم في هذه المعركة غير المتكافئة، حيث فقدت الفرقة التاسعة للقناصة المظليين 9)2(me RCP على أرض المعركة نقيبها جون بيار "Jeon Pierre" وكل عناصرها تقريبا[29]، ويعترف المؤرخ الفرنسي بيار مونتانيو "Pierre Montagnon" بذلك قائلا بأن حصيلة القتلى في صفوف الجيش الفرنسي كانت كبيرة للحصول على نصر عسكري (297 قتيلا و 758 جريحا) [30].

إلى جانب ذلك يمكن ذكر الخسائر المادية التي تكبدها العدو في هذه المعركة، حيث يشير التقرير الولائي لتاريخ الثورة بولاية سوق أهراس إلى أنه تم تحطيم ست طائرات عمودية من نوع (بنان) وطائرة مقنبلة من نوع (B26) وعدد كبير من العربات والمجنزرات[31].

وعلى ضوء هذه المعطيات، يمكن أن نذكر اعترافا رسميا على لسان أحد الجنرالات الفرنسيين في مضمون تلك الرسالة التي

وجهها الجنرال جيل "GILLES" القائد الجديد لأركان الجيش الفرنسي في مقاطعة قسنطينة في 3 ماي 1958 إلى قواته، حيث هنأ فيها قائد الفرقة التاسعة للقناصة المظليين، العقيد بيشو "Buchoud"، واعترف أيضا بأنه تكبد خسائر قاسية من أجل إحراز النصر[32].

7). موقف قيادة الثورة من مشاكل التسليح ومخاطر العبور:

مع مطلع سنة 1958 بدأت قيادة الثورة ممثلة في لجنة التنسيق والتنفيذ في إعطاء فعالية أكثر للعمل الثوري على المناطق الحدودية برفع مستوى القدرات القتالية لأفراد جيش التحرير الوطني بعد أن أوكلت مهمة تأطيرهم إلى أولى مجموعات الضباط الجزائريين الفارين من الجيش الفرنسي في أواخر سنة 1957[33].

وقد استطاع هؤلاء الضباط إقناع كريم بلقاسم بضرورة إعادة هيكلة فرق ومجموعات جيش التحرير الوطني للتجاوب بصورة أفضل مع الواقع الصعب الذي فرضته العمليات العسكرية، وقد شجعت تلك الجهود على تحديث جيش التحرير الوطني في المناطق الداخلية بصورة عامة وعلى المناطق الحدودية بصورة خاصة، حيث عرفت الجبهة الشرقية مضاعفة لعدد فيالقها، ورقيت تلك الجهود إلى مشروع إقامة هيئة نظامية تكلف بالإشراف على إدارة النشاط الثوري العسكري برمته في ربيع 1958[34].

فالمهام الرئيسية التي كلفت بها الهيئة النظامية الجديدة المعروفة بقيادة العمليات العسكرية (COM)، بشقيها (الكوم الشرقية، والكوم الغربية)، تتمثل في اختراق خط موريس والقضاء على بلونيس وأتباعه، وتسوية وضعية الضباط الذين التحقوا بالثورة، وإذا كانت قيادة العمليات العسكرية (الشرقية) قد استطاعت في الأشهر القليلة التي أعقبت تشكيلها تحقيق نتائج ملموسة في ملاحقتها لفلول ومعاقل الحركة الوطنية الجزائرية (MNA) [35]، وفي هيكلة جيش التحرير الوطني بتدعيمه بعناصر مثقفة ومحترفة، فإن عمليات اختراق الخطوط والعبور بقوافل التسليح كثيرا ما انتهت بنتائج وخيمة[36].

وقد تزامنت الأيام الأولى لتشكيل قيادة العمليات العسكرية مع المعركة الشهيرة بمعركة سوق أهراس الكبرى في 26 أفريل 1958، التي اعتبرت تحديا للخطوط المكهربة، وعملية استعراضية إلا أنها من جهة أخرى أوضحت الآثار السلبية للسدود المكهربة خاصة بعدما أقام موريس شال خطا آخر في ربيع سنة 1959[37]، وفي هذا السياق يمكن اعتبار معركة سوق أهراس بالنظر إلى نتائجها أول محك تعرضت له قيادة العمليات الشرقية، فيما يتعلق بأول مهمة ألقيت على كاهلها من طرف القيادة العليا للثورة، إذن :هل شكلت معركة سوق أهراس هزيمة حاسمة

لقيادة الثورة الجزائرية؟ وهل فشل الثوار أمام نظام دفاعي يحمل اسم وزير فرنسي مبعد عن السلطة

- خاتمة:

رغم انتقال جيش التحرير الوطني في الجبهة الشرقية من أسلوب حرب العصابات إلى حرب كلاسيكية بوحدات منظمة بشكل هرمي (فيلق - كتيبة - فصيلة - فوج - زمرة) على جبهات واسعة لمواجهة قوات العدو في معارك فرضتها ظروف العمل العسكري من جهة وردود فعل قوات العدو، من جهة أخرى، لم يحدث تكافؤ في ميزان القوة بين الطرفين في ميدان المعركة، الأمر الذي فرض نفسه في المعركة، المأساة، التي سخّر فيها العدو إمكانيات عسكرية ضخمة، استطاع من خلالها حسم الموقف لصالحه رغم الثمن الباهظ الذي دفعه للحصول على النصر.

وقبل ذلك كانت القيادة العليا للثورة دائما تنصح أفراد جيش التحرير الوطني أثناء عمليات الاختراق والعبور بتحاشي العدو، وعدم الالتحام معه في معارك، غير أن الظروف كانت تفرض ذلك في أغلب الأحيان، وكان لا بد على وحدات جيش التحرير في الجبهة الشرقية تحدي تلك القوات الضخمة التي تمركزت على الحدود الشرقية عقب إقامة خط موريس ثم شال فيما بعد.

ومن الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى حقيقة أخرى، وهي أن ذلك العجز الذي شهدته قيادة العمليات العسكرية في مواجهتها للخطوط لم تكن من الأساليب العسكرية، وإنما في كونها ظلت هيئة تتجاوب مع منطق توازن القوة بين جناحين بارزين في هرم القيادة العليا للثورة، أكثر من تجاوبها مع متطلبات العمل العسكري وعصبه الرئيسي والحساس المتمثل في الدعم اللوجيستيكي.

وبذلك كان فشل قيادة العمليات في إيجاد حلول لاختراق الخطوط ذو تأثير سلبي على وتيرة النشاط العسكري، لأن مشكل السلاح كان أبرز مشكل نجم عنه ذلك الفشل وتسبب في مشاكل أخرى جانبية عمت كل ولايات بدون استثناء.

ومن باب الموضوعية التاريخية التي تلزم الباحث في مواضيع وقضايا تاريخ الثورة خصوصا المرتبطة بالمسائل العسكرية فإنه رغم التصريحات المتفائلة التي كانت تصدر عن قيادة الثورة في تونس والقاهرة، ورغم بسالة عناصر جيش التحرير الوطني بالقاعدة الشرقية التي تأقلمت مع الواقع الصعب الذي أحدثته ردود الفعل الفرنسية، فقد تكبدت كتائب العبور وقوافل السلاح وفيالق الدعم والإسناد الخاصة، خسائر، وتضحيات جسيمة، الأمر الذي دفع إلى دق نقوس الخطر من طرف قيادة الثورة المكلفة بالتسليح والتموين، حيث صرح العقيد أوعمران مسؤول التسليح

يوم 8 جويلية 1958 في تقرير إلى أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ بأن خط موريس المكهرب، قد أصبح يشكل خطرا كبيرا على جنود جيش التحرير الوطني الذين يقومون بمحاولات قطع الأسلاك الكهربائية، وأصبح يتعرض حاليا لخسائر كبرى، أكثر من 6000 مجاهدا سقطوا في منطقة بوشقوق (بالقاعدة الشرقية) وحدها خلال فترة لا تتجاوز 60 يوما.

وعلى هذا الأساس عمدت قيادة الثورة بعد إنشاء هيئة الأركان العامة (EMG) إلى تغيير أسلوب المجابهة، وتحاشي العدو، بالاعتماد على تكتيك الهجوم والمباغتة بالتنسيق مع الوحدات الأخرى عبر كامل تراب الجبهة الشرقية، وفق استراتيجية شاملة ترتكز أساسا على تنويع أساليب إدارة العمليات العسكرية بين الهجومات والاشتباكات والكمائن، والأعمال الفدائية، تماشيا مع المتطلبات التي تمليها طبيعة الظروف العسكرية التي عرفتها "حرب الجزائر".

الهوامـــش:

1-Zdravko Pecar, Algèrie, Témoignage d'un reporter Yougoslave sur la guerre d'Algérie, ENAL, Alger, 1987, pp.114-115

2- عبد الحميد عوادي، القاعدة الشّرقية، دار الهدى، عين مليلة، 1993م، ص 119.

3- المنظمة الوطنية للمجاهدين، الملتقى الجهوي لتاريخ الثّورة (القاعدة الشرقية)، سوق أهراس يومي 14 – 15 فيفري 1985م، ص 1.

4- تمت هذه العملية في ظروف عصيبة نتيجة الحاجة الملحة للسلاح من طرف الداخل، أنظـر:

Pierre Montagnon, La Guerre d'Algérie, Pygmalon, Paris, 1984, p 249

5- عبد الحميد عوادي، مرجع سابق، ص 119.

6- نفسه، ص 119.

7- من بين المجندين في صفوف الجيش الفرنسي، التحق بالثورة، بعد عملية البطيحة في 6 مارس 1956.

8- كان ضمن كومندوس القاعدة الشرقية، ينوبه على قيادة الكتيبة عمر حركاش الذي التحق بسلاحه من الجيش الفرنسي من ثكنة "ميتو" بأولاد إدريس.

9- من نواحي بوثلجة، كان ضمن الفيلق الأول، أنظر : عبد الحميد عوادي، مرجع سابق، ص 118.

10- عبد الحميد عوادي، ملحمة سوق أهراس الكبرى، مرجع سابق، ص 4، وأيضا : عبد الحميد عوادي، القاعدة الشرقيـة، مرجع سابـق، ص 118 - 119.

11- لقد كانت التلال الغابية تسمح بتغطية جيدة لكتائب جيش التحرير الوطني الأمر الذي كـان يدفع دائمـا إلى التفرق بعد اختراق الخطوط، أنظر :

Alistair Horne, Histoire de la guerre d'Algérie, Albin Michel, Paris, 1987,p227

12- Colenel J.Buchoud, le barrage, Historia, N°235 , 3 Juillet 1972, p 1248

ونتيجة عمليات المراقبة المفروضة من طرف فرق الجيش الفرنسي، يذكر أحد قادة الكتائب وهو سالم جليانو أن حظ الفيلق الرابع كان سيئا منذ البداية، بسبب قيام العدو برصد تحركاته خصوصا أثناء عمليات التدريب قرب ساقية سيدي يوسف، أنظر : عبد الحميد عوادي، مرجع ســابق، ص 119 - 120.

13- المنظمة الوطنية للمجاهدين، مصادر سابق، ص 2، وأيضا : عبد الحميد عوادي، مرجع سابق، ص 121.

14- المنظمة الوطنية للمجاهدين، التقرير الولائي لتاريخ الثورة، مرحلة 1958 - 1962، سوق أهراس، 18 سبتمبر 1986، ص 9،

وفي نفس الإطار يذكر المؤرخ الفرنسي بيارمونتانيو P.Montagnon، بأن مجموعة من المجاهدين، قامت باقتحام واختراق الخط في ضواحي سوق أهراس، وبالضبط في جبل موجن، أنظـر:

Pierre Montagnon, op.cit. p. 249.

15 - كانت الكتائب متفرقة إحداها في بوصالح وبوسسو، وأخرى في الحمري، ووداي الشوك، وأخرى تمركزت ما بين سوق أهراس والزعرورية قرب وادي مجردة، أنظر : المنظمة الوطينة للمجاهدين، المرجع السابق، ص 9.

16- *J. Buchoud. Op.cit. p 1250.*

17- Zdravko Pecar, op. cit, p115

18 - عبد الحميد عوادي، مرجع سابق، ص 121.

19 - تميز الإطار الجغرافي لساحة المعركة، في جبل بوصالح، وجبل الحمري، ووادي الشوك، بحصانة طبيعية، ساعدت كتائب جيش التحرير الوطني على التمركز في مواقعها، الأمر الذي دفع بقوات العدو إلى عملية الإنزال الجوي والقصف المدفعي.

20 - عبد الحميد عوادي، مرجع سابق، ص 121، وأيضا : المنظمة الوطنية للمجاهدين، مرجع سابق، ص 9.

21 - عبد الحميد عوادي، ملحمة سوق أهراس الكبرى، مرجع سابق، ص 10.

22 - تجدر الإشارة إلى أن العدو شارك في هذه المعركة بأسراب متنوعة من الطائرات، الأمر الذي أصبح يفرض نفسه دائما، في هذا النوع من المعارك نتيجة تصاعد العمليات العسكرية في إطار جغرافي لعبت فيه العوامل التضاريسية دورا كبيرا في تغطية كتائب جيش التحرير الوطني أثناء تحركها عبر تراب القاعدة الشرقية.

23 - ع. عوادي، مرجع سابق، ص 10، أيضا : عبد الحميد عوادي، القاعدة الشرقية، مرجع سابق، ص 121.

24 - عندما تمكنت بعض الأفواج من الفيلق الرابع من الانسحاب خارج ميدان المعركة، واتجهت نحو الدهاورة، تمت ملاحقتهم من طرف فرق العدو، ووقع الاشتباك في نفس المكان حيث استشهد كل من قائد الفيلق يوسف الأطرش وقائد الكتيبة، معنصر عثمان، كما أسر قائد الكتيبة عيسى (فيو)، أنظر: عبد الحميد عوادي، ملحمة سوق أهراس الكبرى، مرجع سابق، ص 10، وأيضا: نصف الشهر العسكري، جريدة المجاهد، عدد 23، 7 ماي 1958، ص 12.

25 - عبد الحميد عوادي، مرجع سابق، ص 10، و : عبد الحميد عوادي، القاعدة الشرقية، مرجع سابق، ص 122.

26 - المنظمة الوطنية للمجاهدين، مرجع سابق، ص 9.

27 - شهادة المجاهد نوبلي الزين، القاعدة الشرقية (شريط تلفزيوني)، إعداد وتقديم بلقاسم جعافرية، سنة 1998، ويذهب المؤرخ الإنجليزي ألسترهورن Alistair Horne في نفس الموضوع إلى أن خسائر جيش التحرير الوطني كانت كبيرة جدا، فمن بين 820 رجلا الذين عبروا الخط وقع 640 منهم بين قتيل وأسير، من بينهم قائد الفيلق، واسترجع العدو 416 بندقية، و 46 رشاشا، أنظر: Alistair Horne, op,cit,p217 . وأيضا

Colonel J. Buchoud, op. cit.p.1254 .

28- Zdravko Pecar, op, cit.p.115

وقد دفعت خسائر جيش التحرير الوطني بالقاعدة الشرقية على إثر معركة سوق أهراس إلى دق نقوس الخطر، عندما اعترف العقيد أعمران مسؤول إدارة التمويل والتسليح في تقريره إلى لجنة التنسيق والتنفيذ بتاريخ 8جويلية 1958، " بأن الساعة عصيبة وأن جيش التحرير الوطني الذي كان قوة كبيرة بفضل عدته يتلقى حاليا خسائر جسيمة"، أنظر : *Pierre Montagnon, op.cit.p 24 9*

29- Alistair Horne,op, cit. p .217

30- Mon tagnon, op. cit. p. 250

31 - المنظمة الوطنية للمجاهدين، مرجع سابق، ص 9، والواقع أن ارتفاع نسبة الخسائر في الطائرات العسكرية للعدو، يرجع إلى تطور الرشاشات المضادة للطائرات عند الثوار، وفي هذا الصدد أوردت صحيفة لوموند الفرنسية في عددها الصادرة يوم 5 فيفري 1958 (أي قبل 3 أيام من العدوان على ساقية سيدي يوسف)، مقالا أبرزت فيه تدهور سلاح

الجو الفرنسي، بعد تزايد ســلاح المدفعية المضادة للطيران عند الثوار الجـزائريين، أنظر : محمد العربي براهمي، مرجع سابق، ص 93.

32- J. Buchoud, op. cit.p ,125 وأنظر كذلك:

Médecin général Régis Forissier, le soutien sanitaire des www.Stratic.org/ opérations (Avril 2004),

(33)*Mohamed Harbi op. cit,. p. 157*.

34 - يذكر فرحات عباس أن نشأة قيادة العمليات العسكرية جاءت بناء على اقتراح قدم من طرف كريم بلقاسم في 10 أفريل 1958، بعد أن قامت لجنة التنسيق والتنفيذ بترقية عقداء جدد كعميروش، وهواري بومدين، ومحمد العموري، وعلي كافي، وسي الحواس، ومصطفى بن عودة، وعمارة بوقلاز، وأصبح العديد منهم قياديين في قيادة العمليات العسكرية الشرقية والغربية.

أنظر Abbas Farhat, Autopsie d'une guerre , Ed. Garnier frères, Paris 1980, p 246

35 - كانت فكرة قيادة العمليات العسكرية، من بنات أفكار بن بلة، وبوضياف ومحساس، في سنة 1956، كما يذهب إلى ذلك المؤرخ محمد حربي، أنظر : محمد حربي، المرجع السابق، ص 181.

36- Mohamed Harbi, Les archives de la révolution algérienne, op. cit. p 189-194

37 - *D rAvko Pecar, op.cit, p.114*، وأنظر أيضا : عبد الحميد عوادي، القاعدة الشرقية، المرجع السابق، ص 118 - 122، وأيضا : *C.J.Buchoud, op. cit, pp.1246-1254, op.Cit, p1246-- 1254.*